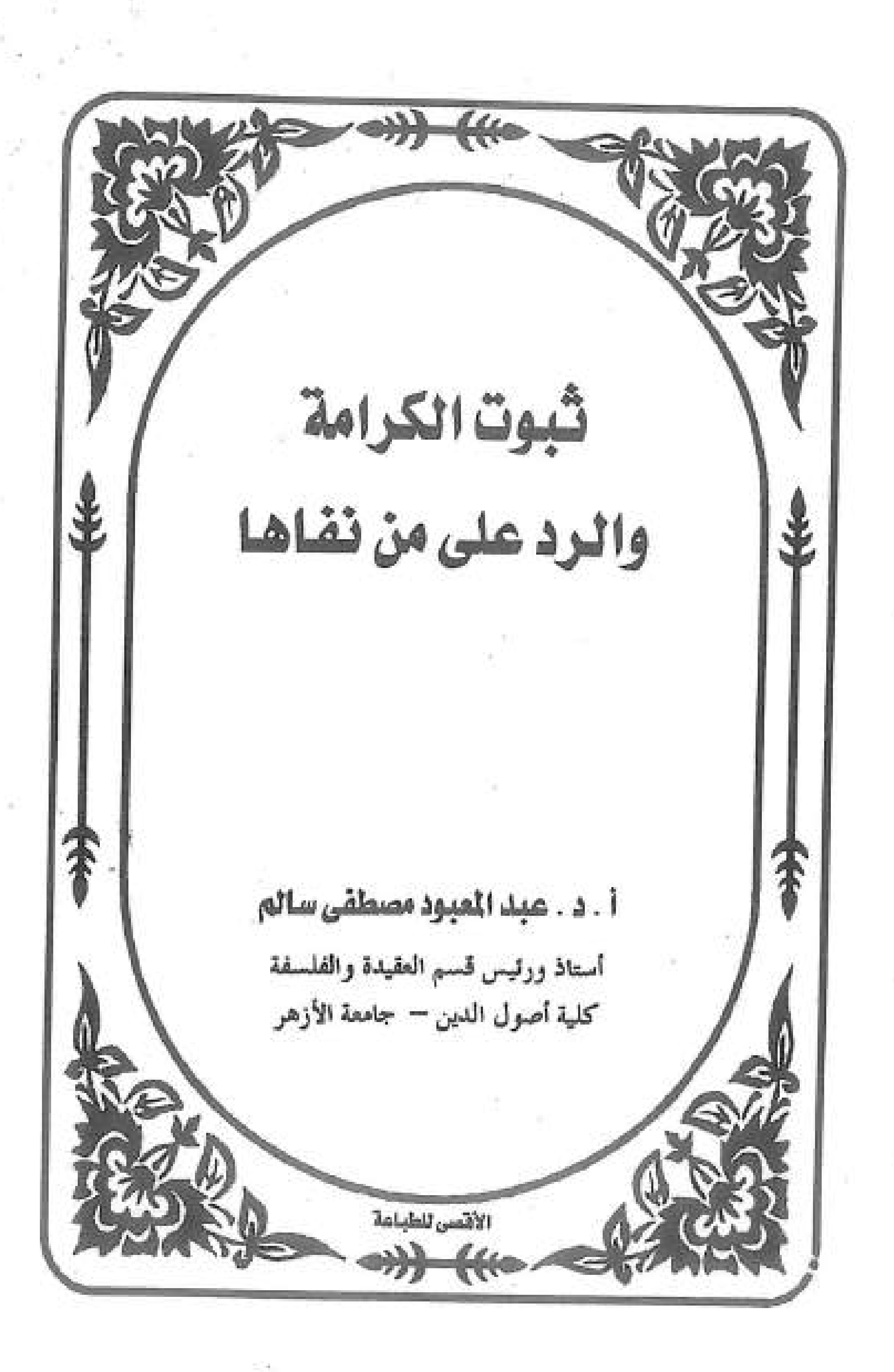


ثبوت الكرامة
والرد على من نفاها

أ . د . عبد المعبود مصطفى سالم

أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين — جامعة الأزهر

الأقصى للطباعة

توطئة :

كانت المعجزات والكرامات (وبالجملة خوارق العادات) كانت ولازالت محل أخذ ورد بين الناس فقد أخذت نقاشاً حاداً بين المتدينين وغير المتدينين على حد سواء فريق يثبتها ويؤمن بوقوعها وفريق ينفيها .

على سبيل المثال : معجزات الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين ، كانت محل نقاش وجدال حاد بين أرباب الفرق والمذاهب المتعددة فمما لا شك فيه أن كل الأديان السماوية اعتمدت :

أولاً وبالذات : على الوحي والإلهام وهذا أمر لا شك فيه بين العلماء فمن الوحي والإلهام صدرت الأحكام والأوامر الإلهية وبما لها من خاصية الإعجاز انتشرت وسادت وعلى هدي منها تأسست قواعد الأديان وانتشرت بفضلها المبادئ السامية والأخلاق العالية والمثل الفاضلة إلى آخره .

وما النبي إلا إنسان حر من بني آدم أعطاه ربي تبارك وتعالى خاصية وقدرة بسببها يستطيع أن يتصل بالملأ الأعلى ويخاطب المولى عز اسمه حتى يمكنه التعبير عن أحكامه تعالى وتبليغ أوامره لخلقه على وفق ما يريد ويأمر [(١)] هذا هو كل ما للأنبياء من فوارق بينهم وبين البشر .

فلا يرى النبي رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ولا يخبر بخبر ولا ينبئ عن أمر إلا هو قول صدق وحق ليس بالهزل وصدق الله القائل ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [(٢)] فهم لا يقضون بحكم إلا وهو تنفيذ للمشيئة الإلهية والإرادة الربانية فالنبوة ثابتة بالكتاب (والمعجزات كذلك) ولم يرد عن أحد من أهل الإسلام أنه أنكرها أو نفى الحاجة إليها سوى بعض الناس ممن لا يرجون لله وقارا من أمثال :

---

(١) راجع شرح المواقف الجزء الثامن وانظر شرح المقاصد الجزء الثاني وقارن شرح البيجوري على الجوهرة الجزء الثاني .
(٢) سورة النجم : الآيات (٤ – ٥) .

ابن الراوندي الملحد وأبو بكر بن زكريا الرازي الطبيب .

أما الأول : فقد أنكر النبوة كلية واتفق مع البراهمة في ذلك – قوم في الهند – فقد أنكروها بحجة واهية هي عدم الحاجة إليها وفي العقل الكفاية وفيه الغنية عن الوحي (١) وعنده أن المعجزات التي هي أساس صدق الأنبياء غير مقبولة في جملتها فضلاً عن تفاصيلها إنها ضرب من الخيال والقصص وما يمنع أن يكون الأنبياء قد اختلقوا هذه الأقاصيص افتراء من عند أنفسهم ليضحكوا بها على عقول البشر فكم هناك من ساذج وكم من بسيط في الفكر والفهم يمكن الضحك عليه بسهولة وأخذ يسرد بعض المعجزات مستعملاً طريق الاستهزاء . (والعقل لا يؤيد ما يسير فيه من طريق الضلال) فعنده أن العقل يرفض تسبيح الحصى وكلام الذئب والضب بهذا الكلام الفصيح واستطرد في اعتراضه على المعجزات مستهتراً . فبلاغة القرآن عنده لا إعجاز فيها إذ ربما تكون قبيلة قريش هي أفصح القبائل كلها وسيدنا محمد (ﷺ) هو أفصح هذه القبيلة ثم إن فصاحته (ﷺ) إنما هي للعرب وحدهم فما حكمه إذن على العجم الذين لا يفقهون العربية ولا يعرفون أساليبها (٢)

وأقول ببساطه لمثل هذا : إن من عنده مزعة من عقل يرفض هذه الاعتراضات بل لا يعيرها اهتماماً إذ هي من قبيل الأباطيل والترهات فهي تفاهات تصدر من كل فاجر فاسق يريد أن يتنصل بل تنصل فعلاً من الأديان وترك العنان للشهوات تفعل النفس ما يحلو لها وما تشاء والله من ورائه محيط .

وأما الثاني : أبو بكر بن زكريا الرازي الطبيب :

فإنه قد سار في نفس الطريق إنه هو الآخر ينتقض المعجزات ويصفها بأنها ضرب من الأقاصيص والحكايات كما أن النبوة مع ما يستتبعها من خوارق العادات لا تتفق مع المبدأ القائل – إن حقائق الأشياء ثابتة – أضف إلى ذلك أن

---

(١) انظر شرح المقاصد للسعد بتعليق دكتور سليمان خميس ص٥٩ ط١٩٦٦م .
(٢) راجع دكتور إبراهيم بيومي مدكور في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ص٨٢ طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٨م ط ثانية .

كل نبي يهدم شريعة من قبله وأن ما جاء به هو الحق وما عداه فهو باطل وضلال (١) ، إلى غير ذلك من الكلمات الخبيثة والعبارات الفاسدة اللئيمة التي تحمل بين طياتها الكفر والدعوة إلى الإلحاد تلك التي لا تعدو أن تكون حملة مكثفة ضد الدين لهدم المبادئ العليا والمثل الفاضلة .

على أنه ليس من غرضنا الآن أن نرد على تلك التفاهات إذ أننا عقدنا هذه الكلمة للحديث عن الكرامات والرد على من نفاها أو نفى وقوعها على يد الأولياء وتركنا التفاصيل في النبوة والمعجزات لحديث آخر إن شاء الله تعالى ومن أراد مزيد الإطلاع والردود على هؤلاء فعليه بالمطولات التي ردت على هؤلاء أباطيلهم وعلماؤنا الذين ردوا على آرائهم (٢) فعلماؤنا رضوان الله عليهم ما تركوا هؤلاء يعبثون فجزاهم الله عنا خير الجزاء وطيب الله ثراهم وإلى الحديث عما نريد الكلام فيه إن شاء الله تعالى .

في بحثنا هذا وهو الحديث عن إثبات الكرامة للأولياء رضوان الله عليهم والرد على من نفاها أو نفى وقوعها على أيديهم .

والله ولي التوفيق وهو من وراء القصد إن شاء الله تعالى والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه إن شاء الله تعالى .

الباحث

أ . د. عبد المعبود مصطفى سالم

أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة

كلية أصول الدين – جامعة الأزهر

---

(١) في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ص٨٧ المرجع السابق ذكره .

(٢) على سبيل المثال : راجع شرح المقاصد للسعد بتحقيق دكتور سليمان خميس ص١٠ وما بعدها وانظر شرح المواقف الجزء الثامن عند الحديث عن النبوات .

الرد على من نفى الكرامة وثبوتها للأولياء

أما بالنسبة للكرامة والحديث عنها فإننا نعلم علماً يقيناً أن الكرامات ثابتة وواقعة لجمع من أولياء الله تعالى نطق بتلك الحقيقة كتاب الله تعالى ووقعت (وتواتر الحديث عن ذلك) لبعض الأولياء فهذا مما لا شك فيه – وسيأتي الدليل بعد إن شاء الله تعالى – وهذا رأي جمهور أهل السنة والجماعة رضوان الله عليهم إذ لم يظهر من يخالف في ذلك سوى الفلاسفة والمعتزلة كما ينسب ذلك لبعض رجال من أهل السنة ومنهم أبو عبد الله الحليمي والأستاذ أبو اسحاق الأسفراييني وعليه يمكننا أن نقول : إن الأستاذ أبا اسحاق الأسفراييني يخالف أهل السنة جميعاً في هذه المسألة – ثبوت الكرامات للأولياء – وعنده أنه لا يجوز ظهور الكرامات على أيدي الأولياء رضوان الله عليهم أجمعين [١] فهو بهذا ينهج نهجاً خاصاً يخالف فيه أهل السنة قاطبة فيما عدا أبي عبد الله الحليمي – كما سبق الذكر – وهو من أساطين أهل السنة والجماعة والذي توافق رأيه مع رأي الأستاذ معنى ذلك أنهما يختلفان في هذه المسألة بعينها مع جمهور أهل السنة الذين ينتسبان إليهم وينحيان ناحية المعتزلة وكذلك الفلاسفة حيث انهم جميعاً أنكروا وقوع خوارق العادات على أيدي الأولياء رضوان الله عليهم [٢] .

حجج المنكرين والرد عليها :

وإذا كان البعض قد نفى ظهور الكرامات على أيدي الأولياء فإن لهم في ذلك بعض الحجج التي يستندون إليها وهاك نذكرها مع الرد عليها :

الحجة الأولى :

قالوا فيها : "إن خوارق العادات هي بحق دلائل صدق الأنبياء إذ أن المعجزة هي الدليل الوحيد على صدق النبي وهي الدليل على صدق قوله" .

---

(١) شرح العقيدة الواسطية ص١٢٦ شرح البيجوري على الجوهرة جـ٢ ص ٧٣ .

(٢) الذهبي سير نبلاء الأعلام جـ١١ ص٧٩ شرح المقاصد ص٦٨ الإرشاد ص٣١٦ البيجوري على الجوهرة جـ٢ ص٧٣ .

والحق أن هذه الحجة لا ترقى إلى مقام الاعتراض ولا تصادف قبولا فالقائلون بها لا يحالفهم التوفيق فيما يذكرون ، فلو ظهرت الكرامات على أيدي الأولياء لم يحصل من ذلك التخوف الذي ذكره هؤلاء وذلك للفرق الواضح بين المعجزة والكرامة .

على سبيل المثال نعلم أن النبي يظهر المعجزة مقرونة بدعواه النبوة وأنه ليذكر ذلك صراحة حال ظهور المعجزة كأن يقول مثلاً أنا نبي مرسل إليكم ودليلي أو دليل صدقي على ما أقول ظهور كذا وكذا من المعجزات الباهرات كما هو الحال مع موسى والعصا وادعاؤه ذلك أمام فرعون ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ۞ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ۞ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١) وكما هو الحال مع سيدنا عيسى (عليه السلام) وإبراؤه الأكمة والأبرص ﴿ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (٢) إلى آخر معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين أما الولي فلا يدعيها أصلاً بل إنه يستحيي من الكرامة عند ظهورها ويتبرأ منها وربما نسبها إلى غيره .

وقد أفاض علماؤنا في هذا المجال وأجادوا الحلة وسر بالها بما يشبع الغلة ويروي الظمأ ، على سبيل المثال نستمع إلى إمام الحرمين الجويني يقول : "فإن قيل (فما الفرق بين الكرامة والمعجزة قلنا لا يفترقان في جواز العقل إلا بوقوع المعجزة على حسب دعوى النبوة ..... وليس في وقوع الكرامة ما يقدح في المعجزة فإن المعجزة لا تدل لعينها وإنما تدل لتعلقها بدعوى النبي الرسالة بما يوافقه وبما يطابق دعواه لا يمتنع أن يصدر منه مثله إكراماً لبعض أوليائه ولا يقدح مرام الإكرام في قصد التصديق إذا أراد التصديق ولاخفاء بذلك على من تأمـــل"(٣).

وما أجمل ما علق به الشيخ أبو بكر بن فورك (رضي الله عنه) في رده على هؤلاء فقد وضح لنا هذا المقام وأطال وأبان أن الفرق واضح بين المعجزات والكرامات

---

(١) سورة الشعراء : الآيات (٣٠ – ٣٣) .
(٢) سورة آل عمران : الآيه (٤٩) .
(٣) الجويني الإرشاد ص٣١٩ طبعة ثانية ١٩٥٠م .

بما حاصله أن الأولى أي المعجزات يجب على النبي إظهارها وأما الأخرى يعني الكرامة فإنه يجب على الولي سترها بل ومحاولة إخفاءها ونفيها . عنه أضف إلى ذلك أن الولي لا يدعيها أصلاً ولا يقطع بكون ذلك كرامة إذ ربما يكون ما وقع على يديه ليس كرامة بل مكراً من الله تعالى اسمه يبتلي به الولي للاختبار وذلك كله على عكس النبي الذي يدعيها ويقطع بها [1] .

الحجة الثانية :

وفيها نرى أن المنكرين للكرامات لم يحالفهم الصواب بل ليسوا على صواب وذلك أن غالب حججهم واهية وضعيفة لا تثبت أمام النقد والتمحيص تماماً كما ظهر من حجتهم السابقة وعلى حد تعبيرهم أو اعتراضهم أن الكرامات لو ظهرت لكثرت الأولياء وخرجت عن كونها خارقة للعادة بل إنها تكون حينئذ عادة .

الحجة الثالثة :

وربما غالطوا في ذلك أعني ظهور الكرامة على يد الولي بحجة أنها لو ظهرت لا لغرض التصديق لا تسد باب إثبات النبوة بالمعجزة لجواز أن تكون المعجزة لغرض آخر غير التصديق [2] .

هكذا تتوالى اعتراضاتهم بناء على هذه الحجج الواهية والضعيفة التي لا تثبت أمام العقل الواعي بل لا تثبت أمام الواقع المشاهد والذي أيده القرآن الكريم على ما سيأتي بيانه بالتفصيل قريباً .

والحق أقول إن هذه الاعتراضات وغيرها مردود عليها ومدفوع بها في وجه قائليها فالحق ظهور الكرامات على أيدي الأولياء إذ أن المعجزة بمجرد أن تقع تفيد التصديق بصرف النظر عن أي غرض آخر ومن المقرر لدى من أثبتها

---

(١) انظر القشيري الرسالة القشيرية جـ٢ ص٦٦ .

(٢) راجع شرح المقاصد لسعد الدين التفتازاني بتحقيق دكتور سليمان حميس قسم السمعيات ص٦٩ أيضاً الجويني الإرشاد إلى قواطع الأدلة ص٣١٨ ط ١٩٥٠م .

أن المعجزة لابد وأن تكون مقرونة بدعوى النبوة وإلا فما الداعي إلى إظهارها سوى هذا الغرض وما المانع أن يكثر الأولياء في الأرض [1] وتكثر كراماتهم التي هي كرم لهم من ربهم جائزة لهم على طاعتهم لمولاهم تبارك وتعالى ومكرمة لهم لأنهم اتبعوا الأمر واجتنبوا النهي وصدق الله تعالى إذ يقول في حق أوليائه : ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [2] فالكرامات هي البشرى من الله لأوليائه في الدنيا ناهيك بما أعده لهم في دار الجزاء ، من هنا وقع الفرق بين المعجزة والكرامة ولذا **عرفت الكرامة** : بأنها أمر خارق للعادة تظهر على يد الولي من أولياء الله تعالى غير مقرونة بدعوى النبوة [3] كما **عرفت المعجزة** : بأنها ما قصد به إظهار صدق من ادعى النبوة أو ادعى أنه رسول من قبل رب العالمين لهداية الخلق ودلالتهم على الله تعالى [4] .

الحجة الرابعة :

وأقول إن النافين لوقوع الكرامة على يد أولياء الله قد تحجروا واسعاً بمنعهم وقوع هذا الأمر على يد الولي إذ تمادوا في مغالطاتهم حيث منعوها بحجة أن ذلك يخل بعظم شأن الأنبياء كما ينقص من أقدارهم وحجتهم أن الأولياء شاركوا الرسل والأنبياء في أخص شيء تميزوا به عما عداهم من سائر البشر وهكذا يستمرون في مهاتراتهم ومقولاتهم .

وأقول لهؤلاء إن كلامهم هذا غير سديد بل غير مقبول إطلاقاً فأي إخلال هذا الذي يحدث أو يقع لأنبياء الله تعالى – كما يدعي النافون – من جراء وقوع الكرامة على يد الولي فمن المسلم به أن المربين والمؤدبين من المعلمين والأساتذة يحبون من تلاميذهم أن يحذوا حذوهم وأن يقتفوا أثرهم ويسرهم أن

(١) قارن المرجعين السابقين ونفس الصفحات .
(٢) سورة يونس : الآيات (٦٢ – ٦٣) .
(٣) راجع شرح البيجوري على الجوهرة جـ٢ ص٤٧ شرح المقاصد للسعد ص٦٧ .
(٤) انظر شرح المواقف ص٧٦ تحقيق دكتور عبد الرحمن بيصار ط١٩٤٨م .

يصلوا أي التلاميذ إلى مرتبتهم أي مرتبة الأساتذة ويسعدهم ذلك ويشرح صدورهم ويثلج قلوبهم وهذا أمر بين لدى أصحاب الفطر السليمة بل ويفخرون بتلامذتهم أنهم وصلوا إلى مكانتهم أو رتبتهم ويتباهون بأنهم تلامذتهم بل إن ظهور الكرامات على يد الأولياء يزيد في جلال أقدار الأنبياء والرغبة في اتباعهم حيث وصلت أممهم واتباعهم إلى هذه المرتبة من الكرامة على الله تعالى بأن منحهم من أفضاله وذلك كله إنما وقع ببركة الاقتداء بأنبيائهم والسير على نهجهم حيث تمسكوا بشريعتهم (١) .

الحجة الخامسة :

وربما لجأ هؤلاء إلى القرآن الكريم ليدعموا به حجتهم إذ استدلوا على مدعاهم بالقرآن الكريم الذي يقول في محكمه تعالى اسمه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ۞ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ ﴾ (٢) فعندهم أن هذه الآية الكريمة خصت الرسل بالإطلاع على الغيب دون سواهم من سائر البشر .

وأقول رداً على هؤلاء أن لسادتنا العلماء من المفسرين أقوالاً كثيرة في هذه الآية فما الذي يمنع أن يكون الغيب المذكور في هذه الآية الكريمة هو غيب معين ويعني به يوم القيامة إذ لم يطلع على سر وقوعها أحد من عامة البشر .

وفي حكم العقل أنه لا مانع بل إنه من الجائز أن يكون الله تعالى قد أطلع على علم وقتها أي وقت وقوعها بعض أنبيائه أو رسله كما جاء في بعض الآثار أن الله أطلع حبيبه محمداً (ﷺ) على وقت وقوعها وأنه ما مات (ﷺ) حتى أعلمه الله ذلك وربما يطلق الغيب المذكور في الآية على الغيب المطلق ويكون المعنى على ذلك أنه لا يطلع على الغيب المطلق إلا الأنبياء صلوات الله عليهم وتسليماته وكذلك الرسل وعليه لا مانع أن يطلع الله بعض أوليائه وأحبائه على غيب معين (٣) ،

---

(١) انظر الرسالة القشيرية جـ٢ ص٦٦ وما بعدها أيضا شرح البيجوري على الجوهرة جـ٢ ص٧٣ وما بعدها أيضا شرح المقاصد ص٢٧٠ .

(٢) سورة الجن : الآية (٢٦) .

(٣) راجع تفسير الآية في تفسير الفخر الرازي وانظر البياضي اشارات المرام ص٣٣٨ تحقيق يوسف عبد الرزاق ط١٩٤٩م أيضا شرح المقاصد ص٧٢ بتحقيق د. سليمان خميس .

هكذا وقف أهل السنة أمام هذه الحجج بالنقد والإبطال ويبقى لهم أن يثبتوا الكرامات للأولياء بالأدلة من القرآن الكريم والشرع الحنيف ويستمر وقوعها على أيدي الأولياء حتى تقوم الساعة بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة بحيث لا تبقى هناك حجة لمعترض عليهم من أمثال الحليمي والأستاذ أبي اسحاق الإسفراييني ومن نهج نهجهم أو سلك طريقهم كالفلاسفة والمعتزلة إذ الكرامة بحق : (هي البشرى التي عجلها الله لهم في الدنيا فإن المراد بالبشرى كل أمر يدل على ولايتهم وحسن عاقبتهم ومن جملة ذلك الكرامات) (١) على غرار ما قال عز اسمه : ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ (٢).

موقف أهل السنة من النافين للكرامة من أهل السنة :

بعد أن استعرضنا لحجج النافين للكرامة عموماً نقول لا مانع إذن من أن يكرم الله بعض أوليائه بنوع من الكرامات عن طريق الإلهام أو على وجه الكرامة من مولانا لعبده بأن يهبه عوناً على المستصعب من الأمور فيذلل له العقبات سبحانه بقدرته وإرادته ومشيئته ولا مانع في قدرته تعالى أن يساعد عبده الولي على متعذر الإرادات وهذا كله على وجه الكرامة منه تعالى لعباده حيث أطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه فاستحقوا أن يطلق عليهم بتوفيق من الله اسم أوليائه وعباده تبارك الله (٣) .

من هنا وقف أهل السنة من أخوانهم الذين نفوها موقف المستغرب المتعجب تارة وموقف المدافع تارة أخرى متلمسين لهم الأعذار والدفاع بتوجيه آرائهم الوجهة المرضية وهاك كلمة موجزة لموقفهم من اخوانهم موقف المتعجب !

وبعد أن استبان تهافت أدلة النافين للكرامة فإن الإنسان مناقد يأخذه العجب لصدور مثل هذا الرأي من رجل كالحليمي وأبي اسحاق الأسفراييني

---

(١) ابن تيمية شرح العقيدة الواسطية بتعليق دكتور محمد هراس ص١٢٥ .
(٢) سبق تخريج الآيات .
(٣) أبو البركات البغدادي المعتبر في الحكمة جـ٢ ص٤٢٢ .

وهما من هما شأناً بين أهل السنة والجماعة وأنهما من المعدودين من بين أساطين أهل السنة رأياً وعقلاً وتقوى بشهادة أكابر عصرهما لهما [1] .

رأي الذهبي :

حكى الذهبي رأي الأستاذ في الكرامات وعقب عليه حاكماً فقال : (وأنه كان – أي الأسفراييني الأستاذ – ينفي كرامات الأولياء ولا يجوزها وهذه زلة كبيرة) [2] ، وهكذا حكم على هذا الرأي الصادر من هؤلاء الأكابر بأنه زلة وكبيرة وأقول لكل جواد كبوة ولكل عالم نبوة كما يذكرون في المثل .

رأي أبي تراب النخشبي :

وقد ذهب بعض العلماء إلى تكفير من رأى هذا الرأي وكل على رأس هؤلاء الشيخ أبو تراب النخشبي هكذا نرى أن الأمر لم يقف عند حد الوصف بالزلة بل وصل الأمر إلى التكفير لمن ذهب هذا المذهب أعني أنكر وقوع الكرامات للأولياء وإني أرى أن هذا الرأي فيه من التعسف والشدة بل والمبالغة في حد الحكم على هؤلاء ويبدو (والله أعلم) أن من ذهب إلى هذا الحكم والقائل بمثل هذا القول إنما أراد كفراً دون كفر أي أراد كفراً بنعمة من نعم الله وهبها لبعض عباده ولم يقصد كفراً يخرج عن الملة فلعله كفر نعمة حيث إن الكرامة ما هي إلا نوع تكريم من الكريم تعالى يهبها لمن يشاء من عباده حكى لنا صاحب الطبقات الكبرى للشافعية : (عن أبي علي الرونبادي أنه كان يقول : إن الكرامات حق وقول أبي تراب النخشبي – من لا يؤمن بها فقد كفر – بالغ في الحط من منكريها وقد تؤول لفظة الكفر في كلامه وتحمل على أنه لم يعن الكفر المخرج عن الملة ولكنه كفر دون كفر) [3] .

---

(1) انظر على سبيل المثال السبكي الطبقات الكبرى جـ٣ ص١١٤ أبو الفدا المختصر جـ٢ ص١٦٤ الذهبي سير النبلاء الأعلام جـ١١ ص٧٨ مخطوط .

(2) راجع الذهبي سير نبلاء الأعلام جـ١١ ص٧٩ مخطوط بدار الكتب .

(3) السبكي الطبقات الكبرى للشافعية جـ٢ ص٣١٩ بتحقيق الأستاذ الطناحي والأستاذ الحلو طبع الحلبي ١٩٦٤م .

ومن هنا تعجب البعض من نسبة إنكارها إلى مثل هؤلاء الأكابر كالأستاذ الأسفراييني والحليمي وذلك للمكانة العلمية لهما وربما استبعد البعض أن يصدر مثل هذا القول منهم فأخذ يدافع عنهم ويوجه الرأي وجهة كريمة .

رأي المدافع

من هؤلاء المدافعين والمنكرين لنسبة إنكارها إلى الأستاذ الأسفراييني أبو علي الروزبادي المذكور آنفاً حيث وصف ذلك بأنه كذب على الرجل وافتراء عليه بل نجده ينسب إليه نوعاً من الكرامات وصف بها الأولياء غير أنها أقل مرتبة من خوارق العادات .

على أية حال نستمع إليه يحكي لنا رأيه في ذلك إذ يقول :

(قال – يعني الأستاذ أبو اسحاق – وكل ما جاز تقديره معجزة لنبي لا يجوز ظهور مثله كرامة لولي قال : وإنما بالغ الكرامات [١] إجابة دعوة أو موافاة ماء في بادية في غير موقع ماء أو مضاهي ذلك مما ينحط عن خرق العادة) [٢] .

القشيري صاحب الرسالة :

ومع رأي القشيري وهو من تلامذة الأستاذ الأسفراييني فعلاً أي ممن تتلمذ على يديه – والتلميذ كما يقولون أعلم بحال أستاذه – وذلك لملازمته له في غالب الأحيان ولاطلاعه على أحواله ولسماع كلامه فالقشيري يرحمه الله حدثنا عن الأستاذ وذكر لنا رأيه بصراحة في الكرامات وذلك واضح وثابت في كتابه الرسالة المسماة باسمه فقال : (إن الأستاذ أبا إسحاق كان يقول الأولياء لهم كرامات شبه إجابة الدعاء فأما جنس ما هو معجزة للأنبياء فلا) [٣].

هذا هو قول القشيري في أستاذه الأسفراييني .

---

(١) يعني بقوله بالغ الكرامات : أي منتهى ما يظهر على يد الولي .
(٢) الطبقات الكبرى للشافعية جـ٢ ص٣١٩ تحقيق الطناحي والحلو .
(٣) راجع في ذلك الرسالة القشيرية جـ٢ ص٦٦٠ بتحقيق دكتور عبد الحليم محمود والدكتور ابن الشريف .

ومما سبق تبين لنا أن المنسوب إلى الأستاذ في هذه المسألة بعد التحقيق والبيان رأيان لا رأي واحد .

الأول : ما ذكره الذهبي والسعد والجويني والبيجوري وهو القول بنفيها على الإطلاق أي أنه كان ينكرها مطلقاً ولا يقول بوقوعها .

الثاني : القول بعدم نفيها على الإطلاق إذ أنه كان يثبت للأولياء نوعاً من الكرامات غير أنها لا تبلغ مرتبة خوارق العادات وذلك كموافاة ماء في بادية ليس بها ماء أو إجابة دعوة أو ما شاكل ذلك مما ينحط عن درجة المعجزات وهو ما ذكره صاحب الطبقات وأيضاً القشيري الذي هو من تلامذة الأستاذ – كما ذكرت سابقاً – ولنا أن نقول تعليقاً على رأي القائلين بإثبات نوع من الكرامات ونسبتها إلى الأستاذ أن ما ينسبه القشيري وصاحب الطبقات ليس بكرامات بل هو نوع من الإعانات تتحقق كثيراً على يد رجل مستور الحال وليس بولي أصلاً هذا ما يظهر لي بعض إطلاعي على النص ولهذا قسم سادتنا العلماء خوارق العادات إلى أنواع منها المعجزات والكرامات والإعانات والإهانات والإرهاص وعد منها السحر كذلك لكني أعرض عن الحديث في هذه الأنواع خوف الإطالة ولأنها ليست موضوع بحثنا فكل نوع منها يحتاج إلى بحث مستقل ولعل المستقبل يسمح لنا بالحديث عنها في أبحاث مستقلة إن شاء الله تعالى ومن أراد مزيد الإطلاع فعليه بالرجوع إلى محلها ومصادرها التي أفاضت فيها وتحدثت عنها [١] .

فالذي أراه من مذهب الأستاذ الذي هو من أساطين أهل السنة والجماعة بعد تفهمي لكل النصوص المنقولة عنه أو المنسوبة إليه رأساً أن مذهبه هو نفي الكرامات وما ثبت عنه لا يصل إلى مرتبة الكرامة – كما ذكرت قبل ذلك – بل بالأحرى تندرج تحت باب الإعانات – والله أعلم – على أن ما جاز صدوره لنبي لا يمتنع عقلاً وقوعه لولي ولا بُعد في ذلك إذ أنها كرامة لعبده الصالح

(١) على سبيل المثال راجع شرح المقاصد ص٦٧ وما بعدها وكذلك شرح المواقف للايجي وكذلك نهاية الأقدام في علم الكلام للشهرستاني وكذلك الإرشاد للجويني وغيرها .

الذي اتبع نهج نبيه وسار على طريقه ، واتبع سبيله ، ولم يفرط في الأمر قيد أنملة هذا من وجهة نظري – والله أعلم – نعم نحن لا ننكر أن هناك بعض المعجزات لا تظهر على أيدي الأولياء وذلك مثل معجزة القرآن الكريم وما عداها فقد رأينا وقوعها منهم كتكثير الطعام وشفاء المرضى ببركة دعائهم وغير ذلك لذا نجد الجويني (ﷺ) يعقب على هذا الراي بأنه مذهب متروك لأن الحق ظهور الكرامات على أيديهم [(١)].

أدلة أهل السنة :

وبعد هذه الجولة التي خضناها واستعرضنا فيها حجج النافين لكرامات الأولياء ورددنا عليهم أقوالهم بقي علينا أن نذكر أدلة أهل السنة وما استدلوا به على إثبات الكرامات للأولياء أقول بحق إن العقل السليم والفطرة القويمة تؤيد ذلك فآيات الله تعالى تدعم رأي أهل السنة وما وقع على أيدي الصالحين مما هو ثابت لا يقبل جدالاً ولا نقاشاً قد حقق هذا الأمر وأكده مما يجعلنا نقول إن الصواب فيما ذهب إليه أهل السنة والحق في جانبهم حيث إن رأيهم هو إثبات الكرامة للولي وهو ما ترتاح إليه النفس ويطمئن له القلب خاصة وأنه المؤيد بكتاب الله وسنة نبيه (ﷺ) وهو ما أيده الواقع المشاهد وقد أحسن القشيري (ﷺ) عندما قال : (وبالجملة فالقول بجواز ظهورها على الأولياء واجب وعليه جمهور أهل المعرفة ولكثرة ما تواتر بأجناسها الأخبار والحكايات صار العلم بكونها وظهورها على الأولياء في الجملة علماً قوياً انتفى عنه الشكوك ومن توسط هذه الطائفة وتوافر عليه حكاياتهم وأخبارهم لم تبق له شبهة في ذلك على الجملة) [(٢)] .

أولاً : الدليل العقلي على إثباتها :

لا شك في حكم العقل السليم أن الكرامات من جملة الممكنات الواقعة تحت تأثير قدرة الحق تعالى اسمه ومعلوم أنه ما من أمر ممكن إلا وهو واقع تحت تأثير القدرة الإلهية فكيف يقال بإنكارها مع هذا الحال [(٣)] .

---

(١) الطبقات الكبرى جـ٢ ص٣١٥ .

(٢) القشيري الرسالة القشيرية جـ٢ ص٦٦١ وما بعدها مرجع سابق ذكره .

(٣) يراجع الجوين الإرشاد ص٣١٩ البيجوري على الجوهري جـ٢ ص٧٤ .

والخلاصة أن الكرامة أمر ممكن ، وكل ما هو ممكن فهو واقع تحت تأثير القدرة إذن الكرامة أمر واقع تحت تأثير القدرة الإلهية فالعقل إذن يجيزها ولا يحيلها إذن هي في حكم الجواز العقلي .

ثانياً : دليل الواقع المشاهد :

وأما ظهورها في الواقع فهي من الكثرة بحيث يعز على الإنسان أن يحصرها عدداً فالصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين كم لهم من كرامات بدت وعن الحصر جلت وهي كثيرة جداً ثم هي وإن كانت أخبارها آحاداً إلا أنها تواترت ونقلت إلينا تواتراً لا يحتمل الشك أو الظن أو الوهم وقد جمع علماء الكلام طرفاً منها ، كما حوتها كتب السير والتواريخ بأسانيدها الصحيحة وعدوا منها على سبيل المثال قصة سيدنا عمر (ﷺ) ورؤيته جيش نهاوند وهو على المنبر بالمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحيات وفي قصته هذه أنه أسدى النصح إلى قائد الجيوش بأن يلزم الجبل (يا سارية الجبل) وقد سمع صوت سيدنا عمر المرابطون هناك والقصة أشهر من أن تنكر ومنها شرب سيدنا خالد بن الوليد السم بيد الأعداء دون أن يؤثر في جسده (ﷺ) ومنها ما روي عن سيدنا عبد الله الشقيق (ﷺ) أنه كان إذا مرت به سحابة يقسم عليها أن تمطر فتمطر بإذن ربها عز وجل إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة [1].

وبهذا تثبت كرامات الأولياء بما تواتر إلينا منقولاً عن السلف الصالح والخلف العدول رضوان الله عليهم أجمعين وهي أكثر من أن تحصى .

ثالثاً : الدليل النقلي :

ثبتت الكرامات بكتاب الله تعالى وليس بعد كلام الله تعالى كلام بحيث لا يمكن لإنسان أن يماري في وقوعها أو يشك في كونها أمر ممكن واقع وثابت .

أقول بحق إن القرآن الكريم هو الفيصل وهو الحكم في هذه المسألة فها هو كتاب الله تعالى ينطق صراحة بوقوع الكرامات على يد الأولياء وثبوتها لهم صراحة .

---

(١) راجع نماذج كثيرة من هذه الكرامات على سبيل المثال الرسالة القشيرية جـ٢ ص٦٦١ وما بعدها شرح المقاصد ص٦٩ البيجوري على الجوهرة جـ٢ ص٧٣ شرح المواقف للإيجي جـ٨ ط دار الكتب .

حكى لنا القرآن قصة مريم (عليها السلام) وأن الله أنبتها نباتاً حسناً يعني أنشأها نشأة طيبة بان سوى خلقها كما جعلها تنبت في اليوم كما ينبت المولود في العام وكان سيدنا زكريا (عليه السلام) وعلى نبينا وجميع الأنبياء – قد تكفل بتربيتها ورعايتها الأولى فكلما دخل عليها يجد الفاكهة في غير وقتها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف وقد روى ذلك عن عكرمة (رضي الله عنه) كما روى ذلك عن سعيد بن جبير وغيرهما قال مجاهد في تفسير قولــه تعالــى : ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [1] يعني علما أو قال صحفاً فيها علم وفي هذا دلالة على كرامة الأولياء ووقوعها لهم حقيقة [2] ويحكى لنا الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه المشهور (قصص الأنبياء) قصة مريم (عليها السلام) وكيفية نشأتها الأولى فيذكر تفسيراً لتلك النشأة الطاهرة الكريمة إنها نشأت على الطهر والعفاف وأن سيدنا زكريا (عليه السلام) عندما كان يدخل عليها يجد عندها الرزق الطيب الحسن ولا علم له به من أين أتاها مع أنه المتكفل بها ومن هنا سأل ﴿ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [3] كما كانت الملائكة تتنزل عليها بالبشارات من الله تعالى باصطفائها وطهارتها من الأدناس والأرجاس كما كانت تحثها على العبادة والقنوت لله تعالى هكذا نشأت على الطهر والعفاف [4] .

المثل الثاني :

الحق أن القرآن قد حكى لنا كثيراً من تلك الأمثلة الكريمة ومنها ما حكاه لنا في قضية أصحاب الكهف والنوم الذي أوقعه الله بهم تلك المدة الطويلة في كهفهم مع حفظه تعالى لأجسادهم من التحلل والفناء مع استغنائهم عن الطعام والشراب أو الزاد والماء طوال هذه الفترة الطويلة مدة تزيد عن ثلاثمائة سنة كما حكى ذلك القرآن والقصة بتمامها مذكورة في سورة الكهف وقد تناولها

---

(١) سورة آل عمران : الآية (٣٧) .
(٢) ابن كثير تفسير القرآن العظيم جـ١ ص٣٦ طبع البابي الحلبي أيضاً تفسير الجلالين ص٤٦ نشر مكتبة القاهرة .
(٣) سورة آل عمران : الآية (٣٧) .
(٤) الشيخ عبد الوهاب النجار قصص الأنبياء ص٣٧٤ وما بعدها ط خامسة خاصة بوزارة الأوقاف .

المفسرون بالشرح والبيان بين مطول ومختصر لها وقد أعرضت عن التفاصيل خوف الإطالة ومن أراد مزيد الإطلاع فليرجع إلى محلها في التفاسير حيث إنني قد أعرضت عن التطويلات فليس محلها هذا البحث [1] .

قال تعالى : ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً ۝ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ [2].

المثال الثالث :

ومن أعظم الأمثلة دلالة على ما نحن فيه من شأن ما ورد في القرآن الكريم من قصة الذي عنده علم من الكتاب والذي كان يعمل وزيراً لسيدنا سليمان (عليه السلام) وكان عنده علم باسم الله الأعظم الذي من دعا به استجاب الله له ومما صنعه – كرامة – أنه أحضر عرش بلقيس من سبأ إلى بلاد الشام وذلك في أقل من طرفة عين بعد طلب سيدنا سليمان من يستطيع أن يحضر عرشها إليه والقصة بتمامها مذكورة في التفاسير بشروحها لكننا نوهنا بها هنا كدليل على وقوع الكرامة على يد أولياء الله تعالى ومن أرادها بالتفصيل فليرجع إلى التفاسير [3]

اعتراض وتوجيه :

وربما توجه النافون لوقوع الكرامة معترضين على وقوعها للأولياء بالتوجيه لفهم هذا القصص القرآني فهماً آخر غير هذا الذي أشرنا إليه بأن قصة مريم كانت إرهاصاً لنبوة عيسى عليه وعلى نبينا وجميع الأنبياء أفضل الصلوات وأزكى التحيات أو معجزة لزكريا (عليه السلام) على اعتبار أنه كان يتعهدها بالتربية والتوجيه فهي إذن معجزة له ، ولعل قصة أصحاب الكهف كانت معجزة

(١) انظر على سبيل المثال : تفسير ابن كثير جـ٣ ص٧٩ وما بعدها وانظر تفسير البيضاوي الجزء الأول تفسير سورة الكهف وانظر كذلك الفخر الرازي .

(٢) سورة الكهف : الآيات (٢٥ – ٢٦) .

(٣) تفسير ابن كثير جـ٣ ص٣٦٤ وتفسير الجلالن ص٣١٨ والبيضاوي جـ٢ تفسير سورة النمل .

لنبي هذا الزمان الذي عاش فيه أصحاب الكهف المشار إليهم في القرآن الكريم ثم إن الإتيان بالعرش من اليمن إنما كان معجزة لسليمان (ﷺ) هكذا وجهوا تلك الكرامات توجيهاً يتفق مع مشربهم النافي للكرامات غير أن هذا الفهم منهم ليس على ما ينبغي وأكبر دليل على ذلك أن سيدنا زكريا (ﷺ) لم يكن يعلم من أين يأتي هذا الرزق لمريم عليها السلام لذا سأل (من أين لك هذا) كما حكى القرآن ذلك صراحة فكان الجواب منها على ما ذكر على أنه بالإمكان أن نقول رداً عليهم اعتراضهم أن المعجزة – كما علمنا – لابد وأن تكون مقرونة بدعوى النبوة والتحدي إذ هي تصديق النبي على ما يدعيه والناظر المتفحص بعقل وروية وإنصاف للحقيقة إلى هذا القصص القرآني الكريم لا يجد هناك دعوى من نبي أقامها للخصوم قال فيها إن هذا الفعل معجزة لي أو تأييداً لرسالتي ثم إني بالإمكان أن أقول أيضاً أن هذا الاعتراض لو صح منهم لجاز وروده على كثير من معجزات الأنبياء إذ ربما يكون ما يظهر على يد نبي إنما هو معجزة لنبي آخر غير الذي ظهرت على يديه [1] هكذا يبطل الاعتراض وتبقى الكرامة ثابتة وقوعاً للأولياء فالذي أتى بعرش بلقيس هو الذي عنده علم من الكتاب كرامة له وليس شيئاً آخر سوى عرشها وقد علق الشيخ عبد الوهاب النجار يرحمه الله على قصة عرش بلقيس وإتيانه بهذه الطريقة على يد الولي فيقول بالنص : (أما الطريقة التي أتى بها العرش على يد الذي عنده علم من الكتاب فشيء لم يكشف عنه العلم وهو نص صريح قاطع الثبوت والدلالة ومن التعسف تأويله بأنه خريطة بلادها كما يقول بعض من كتبوا في التفسير ، ومادام الأمر معجزة خارقة للعادة فلا معنى للمكابرة إذ خالق النواميس له أن يخرقها بقدرته التي أوجدها بها ولعل لمثل هذه الأعمال نواميس أخرى لم يكشفها العلم أطلع الله عليها بعض عباده معجزة لهم في وقت يجهل كل الناس تلك النواميس والله تعالى يخلق ما يشاء ويختار) [2] انتهى كلامه .

---

(١) انظر سعد الدين التفتازاني شرح المقاصد بتعليق دكتور سليمان خميس ص ٦٩ قسم السمعيات ١٩٦٦م .

(٢) الشيخ عبد الوهاب النجار قصص الأنبياء ص٣٣٤ ط خامسة خاصة بوزارة الأوقاف .

كلمة أخيرة :

ونختم حديثنا عن الكرامة بما جاء في الأرجوزة الطيبة التي كتبها الشيخ إبراهيم اللقاني قال في أرجوزته والتي شرحها الشيخ البيجوري :

واثبتن للأوليا الكراما ومن نفاها فانبذن كلامه

من هنا أقول إن النافين للكرامة – بعد كل هذه الأدلة الثابتة لها – لم يحالفهم التوفيق ولم يكونوا على صواب إذ لم يكن رأيهم سديداً فيما ذهبوا إليه من نفي لوقوع الكرامة على يد أولياء الله ومن هنا جاز أن نعتبرها زلة منهم ولكل جواد كبوة ولكل عالم نبوة كما يقولون فالمسألة متفق عليها بين أهل السنة تقريباً سوى ما كان من بعض المانعين كالحليمي والاسفرايني فلا التفات إلى من أنكرها ولا إعتداد برأي من خالف أهل السنة فإن لصاحب العقل السليم والفهم الحصيف أن ينظر إلى كتاب الله تعالى وفيما وقع ويقع للصالحين من عباد الله تعالى فهناك أناس قد شرح الله صدورهم وهداهم للحق وهدى الخلق على أيديهم ببركة وقع كلامهم على قلوب أتباعهم وببركة أعمالهم حيث اقتفوا أثرهم فوصلوا للحق وعرفوه فتمتعوا بكرم الله لهم فكانت الكرامات وقد علق الشيخ البيجوري على البيت السابق بما حاصلة أي اعتقد بثبوت وقوع الكرامات للأولياء ومن نفى ذلك وقال بعدم الجواز كالفلاسفة والمعتزلة ومن أهل السنة الحليمي والأستاذ فاطرحن كلامهم ولا تعول عليه ولا تعيره انتباها أو لا تعيره اهتماماً [1] . هذا والله تعالى أسأل أن يجعلنا من أوليائه وأن يمنحنا الطاقة وأن يفيض علينا من كراماته إنه هو نعم المولى ونعم المجيب وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي الكريم وعلى آله وصحبه الغر الميامين وعلى الأتباع الصالحين الطاهرين والحمد لله رب العالمين آمين آمين آمين .



(١) شرح البيجوري على الجوهرة جـ٢ ص ٧٣ وما بعدها .